دار الكُتب والوثائق القوميّة

# رءوف عباس

## رَجُلٌ مِنْ هذا الزّمان

عُبادة كحيلة

(أبو أدهم)

الطبعة الأولى
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

رءوف عباس

رجلٌ من هذا الزمان

# إهداء

إلى ثوار الخامس والعشرين من يناير

في الذكرى العطرة لواحدٍ من آبائهم

# فهرس


مقدمة ..... ٩

في ستينية رءوف عباس ..... ١٣

النفس الكبيرة ..... ١٩

رءوف عباس في سيرته الذاتية (١) ..... ٢٧

رءوف عباس في سيرته الذاتية (٢) ..... ٤٥

رءوف عباس حامد وعمر من العطاء ..... ٥٧

موتُ هِرَقْل بكائية إلى رءوف عباس ..... ٦٣

صفحات من تاريخ الوطن ..... ٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

# مُقدِّمة

في اليوم السادس والعشرين من يونيو (حزيران) ٢٠٠٨ رحل رءوف عباس حامد ... مضت أربعة أعوام على رحيله، وكما كان ملء السمع والبصر في حياته، يظل ملء السمع والبصر في مماته.

صدرت لرءوف عباس بعد وفاته ثلاثة كتب؛ كتاب بترجمته، وكتاب بتحرير ناصر أحمد إبراهيم، وكتاب بتحريرنا. وصدرت عنه بعد وفاته ثلاثة كتب؛ كتاب بتحرير إيمان يحيى، وكتاب بتحرير أحمد زكريا الشِّلْق، يأتي بعدهما كتابنا هذا وهو من تأليفنا.

ربما يسألني أحدهم: ألا يكفيك ما كتبته أنت عنه وهو كثير، وما كتبه غيرك عنه وهو أيضًا كثير؟؟.

أجيبه بما أجبت به أحدهم آخرًا فأقول: «لأنه قدوة، ونحن نفتقد القدوة ، لأنه إنسان، ونحن نفتقد الإنسان، لأنه العطاء ونحن نفتقد العطاء. قامةٌ شامخةٌ تذكِّرني بقامات أخرى شامخة، عرفتها وصاحبت أصحابها... العقاد، حمدان، الهلالى نبيل... بصماته واضحة في كتبه ومقالاته ومترجماته، واضحة كذلك في تلامذته، في آثاره التي خلَّفها في كل منصب شغله، وفى كل مهمةٍ نيطت به. لم ينافق أحدًا.. لم يجامل .. لم يداهن، كان مرفوع الرأس عملاقًا».

وهذا الكتاب يضم بين دفتيه مقالات كتبتها عن رءوف عباس؛ تعود أولاها إلى العام ٢٠٠١، وتعود أخراها إلى العام ٢٠١١... وجدت من الأوفق أن أجمعها في كتاب واحد ذي عنوان واحد.

كتاب أخير، لكنه لن يكون الأخير، فما يزال رءوف عباس منجمًا لم ينضب ذهبًا، ومنبعًا لم يجف ماءً، ونحن كنا – وما زلنا – ظمأى إلى ذهبٍ وماء.

في نهاية البداية يكون الشكر لصديق جميل ونبيل هو عبد الناصر حسن رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، فقد استجاب لنشر هذا الكتاب في ذكرى صديق آخر جميل ونبيل. ويكون الشكر كذلك لتلميذٍ لرءوف عباس، وتلميذ لنا أعني المؤرخ الشاب أحمد عبد المنعم العدوي الذي قام على إعداد هذا الكتاب وتنسيقه وتنضيده... الشكر لهما معًا.

والحمد لله

الهرم – الجيزة في يوم الجمعة الحادي عشر من رجب الفرد ١٤٣٣هـ
الأول من يونيو (حزيران) ٢٠١٢

وكتب أبو أدهم
عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

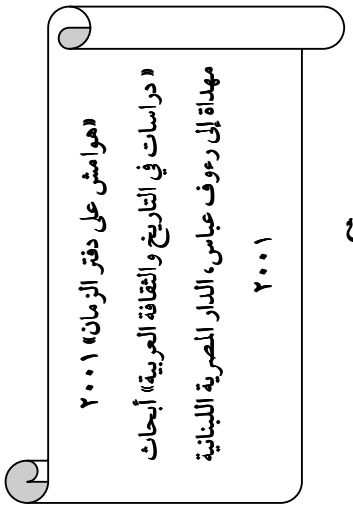

# في ستينية رءوف عباس

«هوامش على دفتر الزمان» ٢٠٠١
« دراسات في التاريخ والثقافة العربية» أبحاث
مهداة إلى رءوف عباس، الدار المصرية اللبنانية
٢٠٠١

في سماء كل أمة يبزغ كل جيل أو عدة أجيال فردٌ أو عدة أفراد ... يتركون في حياتهم وبعد حياتهم، ما يحفظ لهم ذكرهم ويُبقي أثرهم.

هؤلاء الأفراد النابهون هم ملح الأرض، أو هم الصفوة المبدعة... بدونهم لا يستقيم لأمة بقاء، ولا تستديم لها حضارة ... ويصير من اللازم تكريمهم في حياتهم وما بعد حياتهم.

وإذا نحن تأملنا ما جرى لمصر في عهدها الأخير،

يروعنا ما حل بقيم العطاء، وأخصُّها العلم والشرف... فقد توارت لتفسح الطريق لقيم أخرى هي قيم النجاح، وأخصها المال والجاه... ومُلاك هذه القيم أدنى جهد ممكن بأكبر عائد ممكن! ولم يعد للأفراد النابهين صوت مسموع ولا علم مرفوع ، فهاجر كثرتهم خارج المكان أو خارج الزمان، أو خارج الاثنين معًا!

أقول هذا وتُطَوِّف بخاطري ذكريات عن أفراد نابهين؛ أضاعهم قومهم حيث قدَّموا لقومهم وقدَّموا قومهم... ورحلوا عنا وبالنفس غُصَّة لرحيلهم، وما مثال «**جمال حمدان**» – عبقرى زمانه ومكانه – ببعيد!

وليصدقني القارئ القول إنني كنت قلقًا، وربما كنت ممرُورًا ، عشية الإعلان عن الفائزين بجوائز الدولة هذا العام. فقد درجت الحال لسنوات وسنوات على أن تكون من نصيب بعضٍ من صغار المثقفين وكبار الموظفين و «**ترزيَّة القوانين**» !... وعندما علمت بأن الأعز «**رءوف عباس حامد**» قد فاز بالتقديرية منها، شعرت بأنه ربما يعتدل حال هذه الأمة يومًا ويعرف الإنصاف طريقه إليها.

و«رءوف عباس حامد» بقية باقية من جيل البنائين العظام الذين تعتز بهم جامعاتهم اعتزازهم بهذه الجامعات، فقد خلَّف في علم التاريخ مدرسةً، ترددت أصداؤها في وطنه وجاوزته إلى وطنه العربي الكبير. واجتمع فيه إلى كونه عالمًا كونه إنسانًا، مضى به قطار العمر شامخًا مترفعًا عن الدنايا... لم تعرف عنه زلة في صبوته، ولا هفوة في سنوات كهولته . وهو في تعامله مع عالمنا هذا الرديء؛ كان العهد به – وما يزال – شجاعًا... يقول قولة حق ومقالة صدق... ، لا يقيم وزنًا لمالٍ ولا جاهٍ، ومناط المرء عنده عطاؤه . . عطاؤه فحسب.

لهذا وغيره حظى «رءوف عباس حامد» بتقدير المحافل العلمية في وطنه وخارج وطنه، وهو حق له وواجب علينا، يستحقه وغيره لقيم أصيلة ونبيلة، صار القابض عليها في زماننا قابضًا على جمر النار.

- **وهذا كتاب تذكاري ..**

والكتاب التذكاري تقليد عرفه الغرب قبلنا بمائة عام أو نحوها، وعرفناه نحن قبل أربعين عامًا أو نحوها... وكانت البداية مع صدور كتابين تذكاريين عن علمين كبيرين هما «عباس محمود العقاد» و «طه حسين»... ثم تتابعت هذه الكتب

التذكارية عن «قسطنطين زريق» و«ناصر الدين الأسد» و«إحسان عباس» و«محمود شاكر» و«إبراهيم مدكور» و«عبد الرحمن بدوي» وغيرهم من الأعلام.

تبدأ قصة هذا الكتاب - الذي نحن بصدده - قبل عامين ، حين شرعت كتيبة من تلامذة «رءوف عباس حامد» وصحابته ومريديه في إعداد كتاب تذكارى يهدى إليه بمناسبة بلوغه سن الستين من عمره المديد بإذن الله، وكنت واحدًا ممن تحمسوا لهذا المشروع. وبعثت من غربتي بمساهمة متواضعة، وعقيب عودتي وجدت الكتاب وقد تعثر، ونيطت بي مهمة تحريره... فشمَّرتُ لها لم يمنعني منها شغلي ولا ضيق وقتي. وأعانني في أدائها بعض فرسان هذه الكتيبة النجيبة، يذكرون فيشكرون؛ «نللي حنا»، «عبد المنعم الجميعي»، «أيمن فؤاد سيد» و«ناصر أحمد إبراهيم».

لم يكن ما يقلقني هو ما أنفقناه من تَعبٍ أو نَصَبٍ، إنما كان هو السؤال عن ناشر نبيل يتصدى لعمل جليل نيَّف على الستمائة صفحة. وكان من توفيقه تعالى أن وجدنا هذا الناشر النبيل في شخص الصديق «محمد رشاد» صاحب «الدار المصرية اللبنانية»... فقد رحب للوهلة الأولى بنشره، دون أن يفكر -

مجرد أن يفكر – في تبعات هذا النشر وتكاليفه... فجزاه الله عنا خير جزائه.

والشطر الأعظم من هذا الكتاب دراسات تدور في مجال صاحبه، وهو التاريخ والتاريخ المصرى والعربى الحديث، وبعضها في الشأن العام والأدب. وقد جمع أصحابها جميعهم – على اختلاف توجهاتهم – حبهم لشخص المُكَرَّم وتقديرهم إياه، وهم في الوقت نفسه أضافوا إلى تخصصاتهم إضافاتٍ تليق بهم وبوافر علمهم... جعلها الله تعالى في ميزان حسناتهم.

**والحمد لله ..**

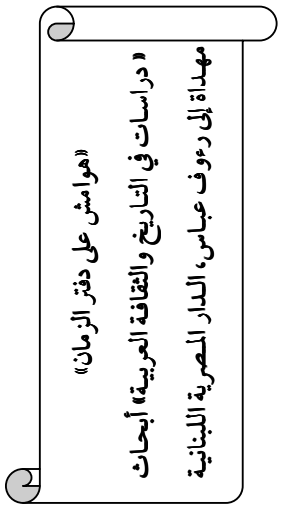

# النفس الكبيرة

«هوامش على دفتر الزمان»
« دراسات في التاريخ والثقافة العربية» أبحاث
مهداة إلى رءوف عباس، الدار المصرية اللبنانية

**١٩٧٥**

ذاتَ ليلةٍ خريفيةٍ في دولةٍ عربيةٍ خليجيةٍ...

وحيدًا وقفتُ على الطريق... أتفكر في وسيلة أعودُ بها إلى داري...

المدينة بعيدةٌ بعيدة... والجو مُوحش ...

شعرت بانقباض...

توقف بسيارته شابٌ يقاربني عُمرًا... دعاني إلى سيارته...

قبلت... شكرت ...

سألته عن اسمه قال: «رءوف عباس حامد، مدرس بآداب القاهرة».

أتذكَّر هذه الواقعة كأنها بنتُ أمس... هو - علمتُ - نسيها.

لم تمتد صلتي بهذا الشاب، إذ لم تمتد صلتي بهذه البلد، ورحلت إلى وطني بعد يسير.

**١٩٨٣-١٩٨٤.**

حصلت على درجة الدكتوراه... رشَّحني هذا الشاب - وقد صار رئيسًا لقسم التاريخ - عضوًا بهيئة التدريس

**١٩٨٧**

عاود هذا الأستاذ ترشيحي مُعارًا بدولةٍ خليجيةٍ.

**١٩٩٥-١٩٩٦**

طوَّح بي زماني الوغد إلى ديار الغربة... كنت أتهيأ لدرجة الأستاذية؛ فناشتني الذئاب ومن كنت أظنهم صِحابًا ولا صحاب.

هُرع «رءوف عباس حامد» إلى نجدتي في غربتي، من غير طلبٍ مني ...

أُحارُ في أمر هذا الرجل .. هو يعيش في زمان غير

زماننا، وفى مكان غير مكاننا.

لم تكن لديه مصلحة عندي، ولا كانت لدى يدٌ عليه، فلماذا إذًا هذا النمط من السلوك .. نمطٌ أعز من أن يتكرر! !

ربما لم يطالع هذا الكبير كلماتٍ مثل هذه لشاعر كبير يقول «صلاح عبد الصبور»:

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتولٌ من قاتله ومتى قتله!

ورءوس الناس على جثث الحيوانات

ورءوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسَّس رأسك

فتحسَّس رأسك!

لكنه يقول «أبو الطيب»:

أَلِفَ المرُوءةَ مُذْ نَشَا فكأنَّهُ سُقِي اللَّبَانَ بها صَبيًّا مُرْضَعَا

أما أنا فأقول: **هي النفس الكبيرة!**

النفس الكبيرة هى المفتاح لفهم هذه الشخصية الكبيرة، أو هى الصِّفة الأُم التي تصدر عنها سائر الصفات.

لست أدري من أين رُفدت هذه النفس وكيف!!.. ولا يبعد أن كانت لأستاذه «**أحمد عزت عبد الكريم**» يدٌ فيها، فهو –

أي رءوف – يذكره – إذ يتذكَّره – بالخير... كل الخير.

لكـن غـرس هـذا الأسـتاذ لـن يثمـر إلَّا في أرض تعـدُ بالرخاء، وتُنبئ بكل خير ونماء.

علَّمه أُستاذه، وعلَّمه أن يعلم نفسه... فعلَّم نفسه.

لم يقف عند حد الدكتوراه، إنما كانت هى البداية، بل بداية البداية... ولم يقف عند حد التخصص، فجاوزه إلى غيره من تخصُّصَات، وأفاد من هذا كله في أبحاثه التي جابت أربع جهات الدنيا.

لم يفعل مثلما فعل غيره –الكثرة من غيره – يكتبون ، ثم يكررون – إذ يكتبون – ما يكتبون.

أحاط بهموم وطنه، وأحاط بهموم عصره، وصار له موقف من العالم حوله، يلتزم به، وما يترتب عليه من تبعات.

أضحت الثقافة عنده مسئوليةً لا تقف عند أسوار الجامعة، إنما تجتازها إلى آفاق أبعد من الجامعة.

الأهـم مـن هـذا كلـه أن صـار لديـه إحـساسٌ فـائقٌ بالآخرين، يقترب مما يحس به الآخرون... وهذا مسلك غريب في زمان تقطعت فيه وسائل المواصلات ووشائج الصلات، وصار كُلُّ جزيرةً وحيدةً في عالم تنوشه الذئاب، ويظفر فيه كل

ذي مخلب وناب . . الكذب فيه شريعة، والنفاق ذريعة، والغاية تبرر كل دَغَلٍ وشَنيعةٍ.

عهدناه في مجلسه – أيًّا كان مجلسه – ملتقىً يتحلق حوله تلامذته ومريدوه، وعارفو فضله ومحبوه .. لم يكونوا جميعهم أصحاب مصالح وأذواء منفعة ومطامح، فمنهم من أُخذوا ببريق هذه الشخصية، فهُرعُوا إليها يتفيئون بظلها، وينهلون بعلمها وفضلها.

وعرفناه أبًا لتلامذتِه حريصًا عليهم وعلى مُستقبلهم، يُعطيهم من علمه ما وسعه عطاء، ويعطيهم من ماله إذا عزَّ لديهم مال.

متَى أحْصَيتُ فَضْلكَ في كلامٍ فقَد أحْصيتُ حبَّات الرِّمالِ

ولأنه نفس كبيرة، فإن له عالمًا راقيًا يفارق عوالم أخرى من غير جهة، وعدا قليل من مال يحميه من غوائل الزمن – وما أدراك ما غوائل الزمن – لم يبخل كل نفسه بشيء من سواه.

ومن أجل أن يعيش هذا العالم الجميل، فقد صدف عن المناصب وعن التدافع بالمناكب.

ولكن...

لم تصدف عنه هذه المناصب، وعندما أتت إليه تجرر أذيالها، أضاف إليها ولم تضف إليه، بل خاصمها حين أحس بخصام أو شُبهة خصام بينها وبين نفسه.

تشهد على ذلك كلية الآداب، ومؤسسة الأهرام، والجمعية التاريخية، ودار الكتب المصرية، وغيرها مما لا تتسع له ذاكرة.

ونَفْسَكَ أكرِمهَا فإنَّك إنْ تَهُن عَليكَ فلَنْ تَلْقَى لهَا الدَّهرَ مُكْرِما

ولأنه يحترم نفسه ، فهو يحترم غيره. وفى عهد رئاسته لقسم التاريخ لم يتفرد – مع حزمه – برأيٍ يفرضه أو يسعى لأن يفرضه، إنما كان يستمع إلى الصَّغير كما يستمع إلى الكبير، ويحاول أن يرسي تقاليد يسير عليها العمل في هذا القسم.

وفي هذا السياق لم يقتنص لنفسه مغنمًا، ولم يفترص لغيره مغرمًا، إنما كانت الأريحية منهجه، والمصلحة مدخله ومخرجه.

اتفقنا معه في الكثير، واختلفنا معه في غير يسير ، لكننا كنا نتفق – حين نختلف – على أن تُظلَّ خلافَنا مساحةُ ودٍّ.

أحيانًا كنا نلمس صرامةً في سلوكه، ربما أغضبت بعضًا ممن أحبوه، لكنهم سرعان ما يرتفع عنهم غضبهم، لأنهم عرفوا جوهره، وعركوا مظهره ومخبره.

نتلفَّت حولنا، ورغمًا عن جهامة ما حولنا، يلوح لنا بارقٌ في مستقبلٍ واعدٍ؛ إذ نشاهد نفوسًا كبيرةً وردت على هذه الجامعة العريقة والكبيرة ... ليس أولها «جمال حمدان»، وليس آخرها «رءوف عباس حامد».

رءوف عباس حامد يجتاز اليوم إلى عامه الستين، وما يزال لديه فيضٌ من عطاءٍ، وما يزال لدينا فيضٌ من وفاء، فأكرم به من عطاء، وأعظم به من وفاء.

مجلة وجهات نظر، العدد ٧٦، مايو ٢٠٠٥م.
وأعيد نشره ملحقًا على الطبعة الرابعة لكتاب
«مشيناها خطىً»، الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٨

# رءوف عباس في سيرته الذاتية

- ١ -

ما دامت الأنَا حاضرة، فلدى الإنسان – أى إنسان – ميل فطرى لأن يتحدث عن نفسه، وليس الكاتب بنجوةٍ من هذا الميل الذي يصل به إلى أن يتقنع وراء شخصياته، وهو ما نلمسه بوضوح في «**ثلاثية محفوظ**» (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية)، ونلمسه كذلك في «**ثلاثية الحكيم**» (عودة الروح، وعصفور من الشرق، ويوميات نائب في الأرياف)، كما نلمسه عند العقاد في «**سارة**»، والمازني في «**إبراهيم الكاتب**» .

على أن الكاتب في أحيان أخرى يفارق قناعه ليتعرَّى أمام قارئه فيما يعرف بالسيرة الذاتية، ومع أنها فن قديم في تراثنا الإنساني، إلا أن الأمثلة عليه قليلة قبل عصرنا هذا الحديث، بين هذه الأمثلة «**اعترافات القديس أوغسطين**» التي تشابهها من وجوه عدة اعترافات الإمام الغَزَّالي في كتابه «**المنقذ من الضلال**».

وتذهب الكثرة الغالبة من الباحثين إلى أن أول سيرة ذاتية في عصرنا الحديث هي سيرة جان جاك روسو، وقد حفلت بجرأة ربما كانت غريبةً في زمانها، وقد عاصرت هذه السيرة «**سيرة الدكتور جونسون**» لبوزويل، وتعد أول سيرة غيرية في الآداب الغربية.

في تراثنا العربي لدينا نموذجان مهمان للسيرة الذاتية هما سيرة ابن خلدون التي سجلها في كتابه «**التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا**»، وهي أشبه بتقرير عن حياته وتفسير - وفي أحيان تبرير - لتحولاته، ويعيبها أن ملكة الوصف عنده خابية وأحاسيسه فاترة، كما إنه مولع بالاستطرادات التي تعتور السياق، وكان أجمل به أن يختصر فيها، بخلاف ما كانت عليه الحال في السيرة الأخرى؛ سيرة

الشاعر والفارس العربي أسامة بن منقذ في كتابه «**الاعتبار**» فهي أشبه برواية متعددة الأحداث والأجواء والمناظر، صاغها بأسلوب بسيط يقترب في أحيان من اللغة المحكية، ويبتعد في أحيان أخرى عن الزخارف اللفظية.

إذا نحن انتقلنا إلى عصرنا هذا الحديث، نجد أن فن السيرة الذاتية قد تخلَّف في نشأته عن قرينه في الغرب، فهذا الأخير سبقنا إلى نهضة، جعلت كتاب هذه السيرة من الأفراد المتميزين بعد أن كانوا من الحكام والمتنفذين.

تعود الإرهاصات الأولى للسيرة الذاتية في شرقنا العربي إلى أحمد فارس الشدياق في كتابه «**الساق على الساق**»، لكن البداية الحقيقية لها كانت مع طه حسين في «**الأيام**»، وبعده تتابعت السير الذاتية عند أحمد أمين في «**حياتي**» وتوفيق الحكيم في «**زهرة العمر**» و «**سجن العمر**» وزكى نجيب محمود في «**قصة نفس**» و«**قصة عقل**»، ثم تبلغ السيرة الذاتية قامةً عاليةً عند لويس عوض في «**أوراق العمر**»، فكان أكثر صدقيةً وأوفر صراحةً، تطرَّق إلى ما كان مسكوتًا عنه؛ مثل علاقاته الجنسية وعلاقاته بأسرته وأشقائه.

قبل أشهر صدر كتابٌ في السيرة الذاتية لكاتب متميز

ومؤرخ مرمُوق هو رءوف عباس حامد، عنوانه: «**مشيناها خطىً**»، وقد أثار هذا الكتاب لدى صدوره ضجةً داخل وطنه وخارج وطنه، ونفدت أعداده فأعيد طبعه غير مرة.

إذا نحن طالعنا «مشيناها خطىً» نجد الكاتب قد التزم فيه بالشرط الأول للسيرة الذاتية، فقد كتبها بعد أن بدأ مرحلة الشيخوخة (٦٥ عامًا)، صحيح أن **نيتشه** كتب سيرته في مرحلة عُمرية مبكرة نسبيًّا، وعلى نهجه سار طه حسين في «**الأيام**» إلا أن الدارج في هذا الفن أن يكتب المرء عن نفسه، وقد بلغت تجربته الحياتية مرحلة نضجها، عركته وعركها، وشرع في تأمل مجرياتها بنظرة فاحصة إليها، كابد فيها ما كابد، وعاند فيها ما عاند.

من هذه الشرائط أن يكون الكاتب ذا تميز في منحىً من المناحي، أضاف إليه وترك بصمةً واضحةً عليه... وهو ما يتحقق في شخص رءوف عباس، وقد كتبتُ عنه ذات يوم أصفه بأنه «بقية باقية من جيل البنائين العظام الذين تعتز بهم جامعاتهم اعتزازهم بهذه الجامعات. فقد خلَّف في علم التاريخ مدرسةً ترددت أصداؤها في وطنه، وجاوزته إلى وطنه العربي الكبير. واجتمع فيه إلى كونه عالمًا كونه إنسانًا، مضى به قطار

العمر شامخًا مترفعًا عن الدنايا، لم تعرف عنه زلة في صبوته، ولا هفوة في سنوات كهُولته، وهو في تعامله مع عالمنا هذا الرديء، كان العهد به وما يزال شجاعًا، يقول قولة حق ومقالة صدق، لا يقيم وزنًا لمالٍ ولا جاه، ومناط المرء عنده عطاؤه. . عطاؤه فحسب» .

حدد الكاتب الهدف من كتابه في إهدائه: «**إلى الشباب... عساهم يجدون فيه ما يفيد... وإلى الذين يسمِّمُون أمامهم الآبار... لعلهم يتعظون**»، كما حدد منهجه في أنه إذ يروى حكايته، لا يتقيد إلا بما رآه وسمعه وعاشه، وكان شاهد عيان عليه، دون مبالغة في الوصف، أو تزيين أو تزييف، التزامًا منه بأمانة الكلمة، مهما كانت دلالتها، ومهما كان وقعها».

إذا نحن تعقبنا الكاتب نجده قد التزم على مدار كتابه بهذه القاعدة الذهبية، فهو لا يخجل من الحديث عن فقره الذي كان رفيقه الأثير، منذ مولده في العام ١٩٣٩، ابنًا أكبر لعامل بسيط فقير، بعث به إلى القاهرة - وهو بعد طفل صغير - ليعيش مع جدته الفقيرة بدورها، في **عزبة هرميس**، وهى عزبة لا تصلها الكهرباء ولا الماء، قد حذف من قاموسه مصطلح العشاء، وأضاف إليه في مرحلة تالية مصطلح الإفطار، ويعترفُ

بأن جدته حرمته من تذوق طعم اللحم، فقد احتكرته لنفسها، وحين اختلس ذات يوم قطعةً منه، لعنته وأمه لأنه «**مفجوع**» مثلها.

لا يقف الفقر عند هذا الحد، بل إنه أوعز لأبيه، بأن يلحقه بالكُتَّاب، علَّه يصبح عالمًا أزهريًّا، إذ ليس في إمكانه أن ينفق عليه في مدرسةٍ. ويشاء القدر أن يتدخل في هيئة شخص كريم حلَّ هذه المشكلة، وصار «**صاحبنا**» تلميذًا في مدرسة «**حنيفة السلحدار**»، لكنها عاودته مرةً ثانيةً، حين فكر في الالتحاق بالجامعة، لولا شخص آخر كريم، أقرضه قرضًا حسنًا، وسيدة كريمة أعطته مبلغًا كانت قد ادَّخرته، ليعينها على تصاريف الزمن... وفى المقابل كان على «صاحبنا» أن يسير إلى كليته في كل يوم خمسة كيلو مترات في الذهاب ومثلها في الإياب.

وإذا كان المرمى الأول للسيرة الذاتية هو أن يحدد لنا الكاتب ملامح شخصيته، نجده إنسانًا بسيطًا يجلس وهو «**الأفندي**» خريج الجامعة مع العمال في مطعَمهم، وليس مع الموظفين، يشاركهم همومهم، ويدافع عن حقوقهم، غير مكترث بعسفٍ يناله من الإدارة، وفيًّا لأساتذته يعترف

بفضلهم، حتى من أساء منهم الظن به «وسيظل هذا موقفه إلى أن يلقاهم جميعًا في رحاب الله، عندما تفرغ كأس الأجل» معتدًّا بنفسه، ينفر عرقه الصعيدي عند أول إساءة، وكذا كانت حاله مع عميده، حين إعارته للخارج، فيلوح له باستقالته، عقلانيًّا منذ نعومة أظفاره يمزق حجابًا، وضعوه له بعد حادثة أفضت إلى عاهة مستديمة، سوف تصحبه إلى قبره، يصر على أن يفهم القرآن الكريم لا أن يستظهره فحسب، معطاءً لا ينتظر ثوابًا لعطائه، فيبادر إبَّان مُقامه في اليابان، ودون تكليف من أحدٍ إلى المساهمة في تأسيس قسم للغة اليابانية بجامعته، ويمهد السبيل لابتعاث زملاء له إلى هناك، ولدى عودته إلى وطنه يعيد بناء قسم التاريخ، وقد صار قاعًا صفْصَفًا، ليُعيَّن فيه معيدون ومدرِّسُون (**كاتب هذه السطور أحدهم**)، شجاعًا يعرض عن كتابة بحث لابنة الرئيس الراحل، وأوراقه لدى لجنة الترقيات، دون أن يتعظ مما جرى لزميله حسن حنفي، مغامرًا لكنها المغامرة المحسوبة، فيضحى من أجل استكمال دراسته بوظيفة مستقرة، مقابل منحة مؤقتة، عنيدًا يصرُّ على التعيين في جامعة غير جامعته، مادام هذا حقه، متسامحًا مع إخوانه الأقباط، باعتبارهم جزءًا من نسيج هذا الوطن شأنهم شأن المسلمين،

متصديًّا للدفاع عن حقوقهم، غير آبه بما قد يترتب على ذلك من تبعات، وطنيًّا يشارك قبل أن ينبت عذاره في مظاهرات الأربعينيات ومطالع الخمسينيات، رغمًا عن تأنيب جدته لانصياعه إلى «**العيال البطالين**» ويتطوع مرتين (١٩٥٦ و ١٩٦٧) للذَّودِ عن الوطن ضد أعداء الوطن.

ومع انحياز الكاتب إلى «**نظام يوليو**» لانحيازه إلى الفقراء، وما طرحه من مشروع نهضوى، كانت له إنجازاته التي لا ينكرها غير جاحد، فإنه لم يكن من دراويشه، يتوجه إليه بسهام النقد، ولكن من داخله، فيعيب عليه افتقاره إلى الديمقراطية، وحكمه بأساليب أمنية، عانى هو نفسه منها، وعليه فلم ينضم إلى أيٍّ من تنظيماته السياسية التي غلب عليها النفاق والانتهازية، وآثر أن يكون من الأغلبية الصامتة.

لكن الكاتب لا ينظر إلى نفسه – بعد هذا العمر – على أنه مبرأ مما يصيبُ البشر من أوجه القصور فيقول: «ولا يعنى ذلك أن صاحبنا كان دائمًا حكيمًا خَاليًا من العيوب والأخطاء، فلا يوجد قديسون بين البشر، فجميعهم خطاءون، وكثيرًا ما يتأمل صاحبنا هذه المواقف التي مرت به ويعيد تقييمها، فيأخذ على نفسه أنه بالغ في سوء الظن بمواقف أطراف بعينها، ولكن

ليس كل الظن إثمًا على أي حال، حسبه أنه لم يتخذ موقفًا – يومًا ما – بدافع شخصيٍّ محض، وكثيرًا ما يكتشف أنه وضع ثقته في غير أهلها، وظن أن كل ما يلمع ذهب».

كاتب السيرة لا يقف عند وصف صورته، إنما هو يصف أيضًا صور من عاصروه، لأنه في علاقاته بهؤلاء يتكشف الصراع الذي يعطى السيرة الذاتية حيويتها، فهو ضرورة لها، مثلما هو ضرورة للرواية، فهناك أخيار وأشرار، ودرجات بين هذا وذاك وبكل ألوان الطيف، وإذا نحن تعقبنا الكاتب في سيرته نجده مولعًا برسم صور للشخصيات التي صادفها عبر رحلة حياته، خصوصًا من شغل منها مواقع في هيئة التدريس بالجامعتين، اللتين درس فى إحداهما ومارس عمله في الأخرى.

بين هذه الشخصيات ذلك الموظف بدرجة أستاذ الذي صعد في مناصب جامعته ليصل إلى أعلاها، ليس بما توافر لديه من علم، فلم يكن لديه سوى اليسير، وإنما بما توافر لديه من صفات ذميمة ودسٍّ ونميمة، وشبكة علاقات مع من هم على شاكلته، تجمعهم المصلحة ولا يجمعهم الواجب. فكان يقف ضد تعيين المعيدين في قسمه، والمرة الوحيدة التي وقف فيها مع تعيين أحدهم كانت دون وجه حقٍّ ولمصلحة ارتآها، وحين كانت تتاح له فرصة الإشراف على طلاب في مرحلة

الدراسات العُليا، كان يتلذَّذ بإذلالهم ويتعمد تأخيرهم في الحصول على درجاتهم، بخلاف ما كانت عليه حاله مع طلاب عرب وغير عرب، وهو يقف حجر عثرة ضد تطوير الدراسة في قسمه، حتى يضمن توزيع كتبه ومُذكراته، وعُهد عنه تعصبه ضد الأقباط، ووقوفه دائمًا في معسكر الفساد، واستغلاله منصبه في لجنة الترقيات، دون صعود عناصر جادة وشريفة (**وكاتب هذا المقال أحدهم؛ أو بالأحرى أحد ضحاياه**).

لم يستخدم الكاتب الأسلوب التقريرى المباشر في تصويره لهذه الشخصيات، إنما هو يحكى قصصًا له شهُود عليها بأسلوب فيه من المتعة قدر ما فيه من المرارة؛ بحيث يستطيع أن يوصل فكره إلى قارئه على نحو سلس وشائق، وقد يلجأ أحيانًا إلى التصوير الكاريكاتيري، فعندما توجه في زيارة إلى جدته، بعد أن تركها ليعيش مع أبويه؛ ولاحظت عليه ما أصابه من زيادة في وزنه قالت إنَّ هذا سوف يؤدى إلى «**تخن مخه وخيبته في الدراسة بإذن واحد أحد**»، وعندما يصف أحد زملائه من الذين طالتهُم تهمة الفساد يقول إنه «**برئ من شبهة القدوة**»، ويستعيد ذكرياته عندما كان صبيًّا فيحكي عن «**عربجي**» الحنطور الذي يشرب من «**قرعة**» البوظة ويسقي حصانه معه، ويجيد في

وصف شخصية أستاذه إبراهيم نصحي «بك» وهو التركى الذي يترفع على أبناء الفلاحين، وينظر إليهم بازدراء، وينعي على الجامعة أنها «**برطشت**».

على أنَّ الكاتب في عرضه تلك الصور يستدرك فيقول إنه «في تقديمه لما مر به من تجارب، يحرص على تلك التي يقوم عليها شهود معاصرُون (أمدَّ الله في أعمارهم)، حتى لا يظن أحد أن بعضها أملته الأوهام وأحلام اليقظة وتصفية الحسابات، فكلها وقائع ثابتة، أكتفي بالإشارة إلى مناصب أصحابها أحيانًا، وذكر بعضهم بالاسم أحيانًا أُخرى، لا بقصد التشهير بهذا أو ذاك، ولكن بغرض دق ناقوس الخطر لمن خدعتهم المظاهر، فأخفت عنهم الجوهر».

ولأن سيرة الكاتب لا تنفصل عن سيرة عصره، فإن من واجبه أن يكون شاهد عيان على هذا العصر وهو ما التزم به في هذا الكتاب بحيث إننا نستمد منه بعضًا مما كانت عليه صورة مصر خلال الخمسين سنةً الأخيرة من القرن العشرين. وقد كان في هذه الشهادة منفعلًا بمشاكل وطنه وهموم وطنه، كما كان طرفًا في بعضٍ من هذه المشاكل والهموم، مُشاركًا فيها أو منفعلًا بها أو مراقبًا جيدًا لها.

أنظر إليه وهو يرسم صورةً لعزبة هرميس التي عاش فيها صبيًّا خلال الأربعينيات ومطالع الخمسينيات، وسكانها وكيف كانوا يعيشُون حياتهم مسلمين ومسيحيين، لا يشعرون بأنهم مسلمون ومسيحيون قدر ما يشعرون بأنهم فقراء ومصريون.

يقول: «وكان سكان العزبة موزعين توزيعًا مُتساويًا بين الإسلام والمسيحية في بعض البيوت، بينما كان المسلمُون أقليةً في البعض الآخر من تلك البيوت، ولعل تجمع الأقباط المنياويين الفقراء في هذا المكان يعود إلى قربه من كنيسة ماري جرجس التي تقع في نهاية شارع الجيوشي. وكان فناء الكنيسة مرتعًا لأطفال العزبة من المُسلمين والأقباط، فيذكر صاحبنا تلك الأيام التي شارك فيها أترابه اللعب في فناء الكنيسة، وتناول معهم لُقمة القُربان من يد «**أبونا**» القُمُّص، ويذكر «عمته» أم جرجس، جارة جدته التي كانت تناديها «**يا أمي**»، وكانت تخاطب والد صاحبنا عند زيارته لأمه «**يا خويا**»، وظل صاحبنا حتى بلغ الثامنة من عمره، يعتقد أن «عمته» أم جرجس شقيقةٌ لوالده وابنةٌ لجدته، وخاصة أن أبا جرجس كان ينادى الجدة «**يا حماتي**»، وعندما كان يحدث سوء تفاهم بين

أبوي جرجس، كانت الجدة تعنف الزوج، فيسترضيها ويُقبِّل رأسها.

«لذلك كانت عزبة هرميس «**مصر الصغرى**» عاش سكانها معًا وكأنهم أسرة واحدة، يأكلون معًا من طبق واحد، فرغم فقرهم الشديد، كانوا يتبادلون أطباق الطعام والحلوى، ولم تكن أيام صيام الأقباط العديدة عائقًا أمام استمرار هذه العادة، بل كان الجميع مُسلمين وأقباطًا صائمين مُعظم العام بالمفهوم القبطي للصيام، لا تعرف «طباليهم» اللحوم إلا في المواسم والأعياد. وكانت النسوة المسلمات والقبطيات يتبادلن إرضاع أطفال بعضهن البعض إذا اضطرت إحدى الأمهات إلى السفر إلى قريتها فجأة لأمر طارئ، والجميع لا يفوته واجب عيادة المرضى، وتقديم التحية في الأفراح، والتعازي في الأتراح».

الأهم من ذلك كله تطرق صاحبنا إلى المسكوت عنه... بصريح العبارة السلطة، حتى في عهدها الناصري الذي يتحمس له، ويعتبر نفسه واحدًا من المستفيدين منه، فيتحدث عن المباحث التي طاردته في الشركة التي عمل بها عقب تخرجه من الجامعة، وطاردته وهو مُعيد جعل أُطروحته لدرجة

الماجستير عن تاريخ الطبقة العاملة المصرية، وكاد يكون واحدًا من ضحاياها لولا أستاذه أحمد عزت عبد الكريم.

يصلُ الكاتب بنا إلى ذروة «التوتر الدرامي»، إذا شئنا أن نستعير شيئًا من مصطلحات الأدب في الفصل الذي عقده عن الجامعة بعنوان «**تحت القبة وهم**» وإن كان قد تناولها على نحو أو آخر في فصول سابقة، ويتضح لنا أن الجامعة كانت بالنسبة له حلمًا ورديًّا، عندما كان طالبًا في جامعة عين شمس، فكان فيها أساتذة يتعاملون مع طلابهم على أنهم أبناؤهم، يعلمُونهم، ثم هم يعلمونهم كيف يتعلَّمون... لكن هذا الحلم تبدد لدى التحاقه بجامعة القاهرة معيدًا، ثم عضوًا بهيئة التدريس، فالأساتذة غير الأساتذة، ولم يكن العلم في جملة أولوياتهم، وكانوا في جلساتهم الخاصة لا حديث لهم إلا في النميمة.

ومادام لكل شيءٍ سبب، فالسبب يكمن - أولًا وقبل كل شيء - في تدخل السلطة في شئون الجامعة، وجامعة القاهرة على نحو خاص باعتبارها الجامعة الأم، خصوصًا أنها لوَّحت لأساتذتها بمناصب الوزارة، فهُرع الكثيرون منهم إليها وجعلوا أنفسهم في خدمتها وخدمة أمنها، الذي صار مديره في الجامعة

يفوق في سلطاته سلطات رئيس الجامعة، ويأتي لنا بمهازل عن انتخابات الاتحادات الطلابية، ومهازل أخرى عن انتخابات الاتحاد الاشتراكي في كليته، وكيف تحول بعض من كبار الأساتذة إلى عملاء للمباحث وكتبة تقارير. ثم هو يأتي بصور عما أفرزه هذا المناخ الفاسد، منها أنه أتاح الفرصة لزوج الرئيس السابق وبناتها لأن يلتحقن بالجامعة دون وجه حق، فتحصلُ هذه الزوج على أعلى الدرجات وتعين معيدةً، بل تحصل على درجة الماجستير (وبعدها الدكتوراه) في وقت قياسي، وقد أحاطت بها جوقة من الأساتذة المنافقين الذين كوفئوا على «**خدماتهم الوطنية**» بأعلى المناصب، كما يأتي بصور أخرى عن جُهلاء وفاسدين وصلوا إلى مناصب الجامعة العُليا، لدرجة أن أحدهم كان يجهل من هو «**أحمد لُطفي السيد**» أول رئيس مصري لجامعته، وأستاذ لأجيال متعاقبة من المصريين، وأخيرًا وليس آخرًا تعديل شروط الإعارة، لخدمة أغراضٍ شخصية لا علاقة لها بالعلم.

يتحدث الكاتب بعد ذلك عن آليات الفساد التي تتمثل في دعم الكتاب الجامعي، والصناديق الخاصة، ولجان الممتحنين، ولجان الترقي التي حرمت الجامعة من أستاذ جليل

ذي سُمعة عالمية، هو **أيمن فؤاد سيد**، بعد أن تحكم في مصيره من لا يصلحون لأن يتتلمذوا على يديه.

لكن الكاتب مع حُزنه الشديد على ما آلت إليه حال الجامعة. إلا أنه – وهو العالم الذي يؤرِّخ لأزمنة سابقة على زمانه بمنهج علمي صارم ورؤية نقدية موثقة – يعلم جيدًا أن الجامعة مؤسسة لا تنفصل عن المجتمع الذي تنتمي إليه، وهو مجتمع يمر بخللٍ بنيويٍّ خطير، فيقول وهو ممرُور: «هذا غيض من فيض، عاينه صاحبنا تحت قُبة الجامعة التي ظنَّها يومًا مثالًا للنزاهة والنقاء خلت من الآفات التي يعانيها المجتمع. كان يظن أن الجامعة «**بيت الحكمة**»، العقل المفكر الذي يرسُم للأمة خُطاها، فاكتشف أنه كان واهمًا، وتبين له أن الجامعة خلية من خلايا المجتمع، تتأثر بما يصيب بقية الخلايا من عطبٍ ومن أمراض، وأدرك أن الجامعة مرآة تنعكس على صفحتها صورة المجتمع بما فيه من تناقُضَات، وما يعانيه من علل وأوجاع».

يبقى بعد ذلك أن نتساءل... لماذا كانت الصور التي تتتابع عبر صفحات الكتاب في معظمها صورًا قاتمةً كابيةً وحزينةً، مع أن الواقع لا يخلو من صورٍ أخرى مُضيئة؟... لا نجد لذلك من تعليلٍ إلا أن الكاتب تملكته -كما قال **شِللي** –

«**شهوة إصلاح العالم**»... هذه الشهوة التي جعلته يلتفت إلى هذه الصور الحزينة ويعرض عما سواها، ويحضرنا في هذا الشأن تلك السطور من «**حياتي في الشِّعر**» حين يقول صلاح عبد الصبور: «يصفني نقادي بأنني حزين، ويدينني بعضهم بحُزني، طالبًا إبعادي عن مدينة المستقبل السعيدة، بدعوى أنني أُفسد أحلامها وأمانيها، بما أبذره من بذور الشك في قدرتها على تجاوز واقعها المزدهر (في رأيه) إلى مستقبل أزهر. وقد ينسى هذا الكاتب أن الفنانين والفِئران هم أكثر الكائنات استشعارًا للخطر، ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدُو لتُلقى بنفسها في البحر، هربًا من السفينة الغارقة. أما الفنَّانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس ويصرخون بملء الفم حتى ينقذوا السفينة أو يغرقوا معها».

لنا في النهاية عتاب على الكاتب ورجاء... عتابٌ لأنه لا يسترسلُ كثيرًا في ذكرياته عن حياته العائلية، ومنها حياته العاطفية، وربما اعتذر عن هذه بشغله وأسرته بطلب القُوت، ثم شغله هو بطلب العلم، وربما كان السبب زواجه في سنٍّ مبكرة من زميلةٍ له اطمأن إليها، وكانت عند حُسْن ظنه في الحال والاستقبال، وخير مُعين في رحلة الحياة، لكننا نحسب أن

ليس له عُذر حين لا يتحدث باستفاضة عن علاقاته بأبيه وأمه وأشقائه وأصدقائه ورفاق الصِّبا، لأن هذه العلاقات وما يترتب عليها، تشكل عُنصرًا أساسيًّا في بناء شخصيته، وفى تفسير مواقف عديدة وحادثات عرضت له.

كذلك فمن اللازم لمؤرخ مرمُوق ترك بصماته واضحةً على علم التاريخ - وهى بصمات غير منكُورة - أن يسهب في الحديث عن موارد ثقافته، فمعروف عن رءوف عباس ثقافة مَوسُوعيَّة أعانته في فهمه للتاريخ وإحاطته بتفصيلاته وبواعثها... هذه الثقافة لا تتأتَّى إلا بمطالعات في مجالات شتى؛ لكنه يكتفي بذكر ولعه بمشاهدة الأفلام السِّينمائية في صباه ومطالعة «البَعْكُوكَة» و«سِنْدبَاد» ثم قراءة بعض الكتب للرافعي (المؤرِّخ) وبعض الكُتب لطه حُسين وسلامة موسى وجرجي زيدان (لا حديث عن العقاد) ولا يذكر لنا ماعدا ذلك وأظنه كثيرًا.

أما عن الرجاء فهو أن يتحفنا الكاتب بكتابٍ آخر عن الشخصيات التي عرفها، وعرض للمحات من حياتها... وهكذا فعل غيره من سابقيه، وبينهم العقاد وطه حسين وهيكل والبشري وفتحي رضوان وغيرهم، فيصير شاهدًا على رجال عصره، مثلما كان شاهدًا على عصره.

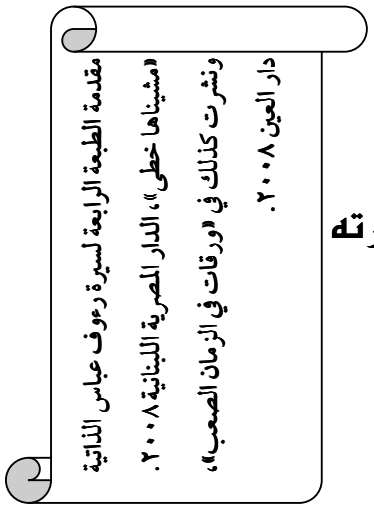

مقدمة الطبعة الرابعة لسيرة رءوف عباس الذاتية «مشيناها خطى»، الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٨. ونشرت كذلك في «ورقات في الزمان الصعب»، دار العين ٢٠٠٨.

# رءوف عباس في سيرته الذاتية

- ٢ -

لا أدري لماذا كلما طالعت كتاب «رءوف عباس حامد» «مشيناها خُطىً» – وقد طالعته غير مرة – تُطوِّف بخاطري أبيات تسللت إلى حافظتي في شبابي الغارب؛ أولها:

أرى خَلَل الرماد وميض نارٍ وأخشى أن يكون لها ضرامُ

قالها عربيٌّ كان يخشى على قومه العرب من قومه العرب. لكن هؤلاء العرب جدَّدوا معه ما سبق أن حذرهم منه

جدٌّ له، فلم يصغوا إليه، ولما وقعت الواقعة قال ذاك الجد:

أمرتهمُ أمري بمُنْعَرج اللِّوَى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغدِ

تُطوِّف بخاطري كذلك تلك الأبيات من رائعة «**أمل دُنقل**» «**البكاء بين يدى زرقاء اليمامة**»:

أيتها العرَّافة المقدسة
ماذا تفيد الكلمات البائسة؟
قلت لهم ما قلت عن قوافل الغبار
فاتهموا عينيك يا زرقاءُ بالبوار
قلت لهم ما قلت عن مسيرة الأشجار
فاستضحكوا من وهمك الثرثار
وحين فوجئُوا بحد السيف قايضُوا بنا
والتمسوا النجاة والفرار

❁ ❁ ❁

عرفت «رءوف عباس» قبل سنوات وسنوات، فعهدته فارسًا في زمان غاب عنه الفرسان، وصار الميدان يعجُّ بالخصيان، ومن ليس لهم في المكان مكان.

وأعترف بأنني طالعت الكتاب، قُبيل أن يدفع به صاحبه إلى المطبعة، فاستبد بي الدَّهَش، لما راعني فيه من جراءة جاوزت الحدود، في عالم من السدود والقيود، وأشفقت عليه من وَحْش الأرض وهوامها، وذباب الصحراء وطغامها، واقترحت عليه أن يستأنس برأى من يراه من أهل الذِّكر، فربما كان لهم مع رأيه رأى... لكنه أبى، فسلمت أمري إلى الله.

كانت المفاجأة أن الكتاب – وقد صدر في نهايات العام – صار كتاب العام، ونفد قبل أن يغيب ذاك العام، فأعيد طبعه ونفدت طبعته في أيام، فعبر البحر إلى بلاد الشَّام، لتظهر له طبعة ثالثة رائعة، وها أنا أحُوز الفضل في تحرير طبعةٍ رابعة ورائعة.

هذه الطبعة تختلف عن سابقاتها، فهى تضم إلى جانب الكتاب مقالات عن الكتاب ومقابلات مع الكاتب، ومحاضر للقضايا التي رفعت ضده، والقضية التي رفعها ضد أحدهم، والأحكام التي أنصفته، والتي تشي بأنه ما يزال في بلادنا قضاء، وتشي كذلك بأن الغد أجمل من اليوم، وربما يأتي زمان غير الزمان فيستريح «**آرثر الملك**» أينما كان، لأن ما كان يتطلع إليه من سلام، لابد وأن يتحقق في قابلٍ من الأيام.

كنت أتمنى أن أدرج على ما درج عليه أسلافٌ لنا، فأكتب حاشيةً على الكتاب أو ذيلًا أوصلةً فالحديث ذو شجون... آه من تلك الشجون!!، لكنني رأيت أن أرجئ ما كنت أتمنى إلى مستقبل أراه قريبًا.

❁ ❁ ❁

سعدت بما كُتب عن الكتاب، فقد لمس أوتارًا في نفوس شرفاء، أجمعوا على شرفه وشرف كاتبه، وأجمعوا على أنه حجرٌ ألقى في بركة آسنة... كم هي تلك البركة آسنة!!.

الكثرة الغالبة من هؤلاء الشرفاء، كان تركيزهم على الجامعة، وما يجري داخل الجامعة، وهذا في ذاته صحيح، لكن الكتاب - أحسبُ - أكبر من أن يكون كتابًا عن أزمة جامعة... إنه كتاب عن أزمة وطن، والجامعة في القلب من هذا الوطن. والكاتب إذ يروي سيرته، فهو يروى سيرة وطن عبر خمسين سنةً من عمر هذا الوطن، ويصوِّر ما آلت إليه حاله من غَسَقٍ إلى فَلَق. ومن هذا الفلق إلى غَسَقٍ آخر، ثم عتمة فمغيب، يكاد ينتهي به إلى بحر الظُّلمات.

ملاحظة أخرى مهمة هى إن غالب هؤلاء الشرفاء.

أعطوا مضمون الكتاب عنايةً تفوق عنايتهم بشكله الفني، وأُعْطى لهذا المنحى تفسيرًا، خلاصته إن حال الجامعة وحال الوطن تردَّتا على الأصعدةِ كافة إلى هاوية أخشى أن تكون سحيقةً... هذه الحال هى التي حفزت هؤلاء، لأن يكتبوا ما كتبوه.

اليسير من هؤلاء عنوا بشكله الفني عنايتهم بمضمونه، وأزعم إنني أحدهم... يشاركني على نحو أو آخر «عبد المنعم رمضان» و«حلمي سالم» و«أحمد الخميسي» و«نصار عبد الله» و«سليمان عُرَيْبات»... فالكتاب عنوانٌ لمرحلة جديدة في فن السيرة الذَّاتية، وهو جنس أدبي بدأه في عصرنا الحديث «**طه حسين**» وبلغ قامةً عاليةً عند «**لويس عوض**»، وبلغ قامةً أخرى عالية عند «**رءوف عبَّاس**».

ملاحظة أخيرة؛ هي أن معظم من كتبوا عن الكتاب لا يعرفون صاحب الكتاب، أو أن معرفتهم به يسيرة. وهذا من شأنه ترجيح كفَّة صدقه، فليس ثم وراءٌ، ربما تشوبه منافع ومنازع وأهواء. ولن أنوِّه إلى ما قالوه. . . إنما آتى بقطوف مما قالوه.

«جدارية مصرية تشع حبًّا وأملًا... وحرية».

**أسامة عرابي**

«واحد من أروع كتب السيرة الذاتية في تاريخ الكتابة العربية».

**نصار عبد الله**

«شفاف كندى الفجر الوديع... قوى كصخور المقطم المطلة على القاهرة في حنو ... عنيد كمن تجرى في شرايينهم دماء الجنوب الساخنة الطيبة، وديع... وعاصف ساخر وألمعي».

**أسامة عفيفي**

«ترك شهادةً أخلاقيةً رفيعة عن دور المثقف في الدفاع عن الحق، ومحاربة الفساد».

**فيصل دراج**

«سيرةٌ مدهشة، أخطأت في تأجيل قراءتها عدة أشهر».

**سعيد الشحات**

«ما هذا الشلال النقي الذي هطل علينا يا دكتور رءوف، ونحن نقرأ لك هذا الكتاب المخلص الشجاع».

**سهير إسكندر**

«هذه مصر وأنت ابنها. فتدفَّقا معًا فكلاكُما نهر».

**عبد العال الباقوري**

❁ ❁ ❁

واحدٌ فقط ممن كتبوا عن الكتاب، تفرَّد عن سائر

الكُتَّاب، فكان لحنًا نشازًا على سيمفُونية جميلة... هذا الكاتب هو «**عبد العظيم رمضان**» – رحمه الله – فقد نشر مقالين يحفلان بثغرات أجل من أن تحصى، ولن أدافع عن «رءوف عباس»، فقد تكفل هو بالدفاع عن نفسه، كما أن القضاء المصري النزيه أنصفه. لكنني أنوِّه إلى مثالٍ واحد على تلك الثغرات، فهو يشكك في أرقام توزيع الكتاب، ولو كان – رحمه الله – على قيد الحياة، لأشرتُ عليه بمراجعة جريدة **الأهرام** (الأربعاء ٢٩ من ديسمبر ٢٠٠٤) وكان قد مرَّ أربعة وعشرون يومًا فقط على صدُور الكتاب، ليتضح له أن هذا الكتاب في طبعته الأول نفد، وأن بعض الكتاب يعتبرونه – رغم صدوره في نهايات العَام – كتاب العام.

يبقى بعد ذلك أن نتذكر أن رمضان وصحبه (وهم أربعة وليسوا ثمانية كما يدَّعى) رفعوا دعويين ضد «رءوف عباس» يطالبون بسجنه فضلًا عن تعويضهم مدنيًّا، في حين رفع رءوف دعوى ضد «رمضان»، لكنه لم يطالب بسجنه، لموقف مبدئى له من الدعاوى السَّالبة للحُريات... أنا – إذًا – أتخذ مكاني إلى جوار «محمد الغيطي» (راجع مقاله) فأرفع له القبعة.

❁ ❁ ❁

أتوقف عند هذا الحد، وأعاود حال الوطن، وحال الجامعة التي تنتمي إلى هذا الوطن. أما عن الوطن فيكفينا مراجعة تقارير التنمية الصَّادرة عن هيئة الأمم المتحدة، خصوصًا تقريرها عن العام ٢٠٠٤ وتقارير منظمة العفو الدولية (أمنستي) وغيرها من تقارير توضح أن مصر التي عرفتها في شبابى الذاهب لم تعد هى مصر التي أعرفها اليوم، وليس يلوح في الأفق بارق، يجعلنا نتفاءل بمستقبل واعد.

أما عن الجامعة... وما أدراك ما الجامعة... فقد تخلت عن دورها كقاطرة للمجتمع إلى عالم لا يقيم وزنًا لمن لا يقيم للعلم – أى الجامعة – وزنًا. وآتي هنا بمقتبس من مقال «**عصام العريان**» روايةً عن العالم الكبير «**محمد القصَّاص**».

«أقامت كلية العلوم بجامعة القاهرة مرصد القطامية، وكان الثالث في العالم قبل أمريكا الشمالية، كان ذلك عام ١٩٥٠.

ساعد الاتحاد السوفييتي مصر في إقامة المفاعل الذرى جنبًا إلى جنب الهند عام ١٩٥٤... أين الهند الآن وأين المشروع

النووى المصري؟!، الهند لديها أسلحة ذرية وهيدروجينية، ومصر تحول المشروع النووى في الضبعة إلى منطقة سياحية.

كان ترتيب قسم الكيمياء بعلوم القاهرة عام ١٩٦٠ تقريبًا العاشر على مستوى العالم، الآن ليس له ترتيب تقريبًا» .

انتهى المقتبس وليس لدى من تعليق سوى أن الجامعة المصرية صارت صفرًا كبيرًا ربما يضارع في جَرْمِه صفرًا آخر كبيرًا هو **صفر المونديال**

لكن والحال هذه ... هل ثم جدوى من إصلاح الجامعة، نعاود مقتبسًا آخر لكاتب آخر هو «**عبد المنعم سعيد**»، أختلف معه، ويختلف «رءوف عباس» معه في توجهاته الفكرية، لكنني أتفق معه ويتفق «رءوف عباس» معه في وصف ما قام به «صاحبنا» من إصلاح في قسم التاريخ بأنه «كان جملةً اعتراضية على واقع ممتد، ما لبثت الفضائل فيه أن ذرتها الرياح، لأن التطبيقات المؤسسية للنظرية الاجتماعية، لم تكن لها أن تقرر إلا دمارًا أخلاقيًّا وعلميًّا».

ما يقوله «عبد المنعم سعيد» هنا قريب مما قاله «**عبد الرحمن بن خلدون**» قبله بقرون مديدة، فهو لا يفصل بين حال

العلم في زمان ما ومكان ما وحال المجتمع الذي أفرزه؛ إذ إن مؤسسة العلم في جملة مؤسسات المجتمع تنهض بنهوضه وتهبط بهبوطه، أى إن هناك علاقةً عضويةً بين هذا وذاك.

إصلاح العلم - إذًا -رهن بإصلاح المجتمع، وصلاح العلم - إذًا - رهن بصلاح المجتمع.وسيرة «رءوف عباس» الذاتية موجهة إليهما معًا.

❁ ❁ ❁

في النهاية يكون الشكر واجبًا لكتيبة من النُّبلاء، تضم هؤلاء، الذين حفزوا «رءوف عباس» إلى كتابة ما كتب، وفي طليعتهم «**عبد العال الباقوري**» و«**إيمان يحيى**» و«**أحمد غُزلان**» كما تضم النبيل «**مصطفى نبيل**» الذي جازف بنشر كتاب، لا يقدم على نشره إلا من كان في شجاعة كاتبه ونبالة كاتبه.

الشكر واجب كذلك لكتيبة أخرى من النبلاء، تضم «**أحمد نبيل الهلالي**» و«**صلاح صادق**» و«**محمد الدماطي**» ... هؤلاء الذين ترافعوا عن موكلهم، دون أن يتقاضُوا منه ما هو حق لهم، فطوبى لهم ثم طوبى لهم ثم طوبى لهم.

ما يحزنني أن أتلفت حوالى، فأجد «**الهلالي النبيل**» قد

فارق دارنا هذه – دار الفناء – إلى دار الحق والبقاء، وهو الذي كان يملأ حياتنا حبًّا وأملًا وحريةً... مات قبل أن تُكتحل عيناه بمرأى الحكم الذي كان يتطلع إليه، تطلع «رءوف عباس» نفسه إليه.

أما الصديق النبيل كسابقيه من الأصدقاء النبلاء «**محمد رشاد**» صاحب «الدار المصرية اللبنانية» فليس بغريب منه أن يقدم على نشرة جديدة لهذا الكتاب، وهو الذي أقدم قبل سنوات على نشرة لكتاب آخر عن ستِّينيَّة رءوف، فأضاف مكرمةً إلى مكرمةٍ... جعله الله سباقًا إلى ما فيه خير الوطن وخير الشرفاء من أبناء هذا الوطن.

**والشكر إليه تعالى في الأخير... هو نعم المولى ونعم النصير**

# رءوف عباس حامد
# وعمرٌ من العطاء

جريدة الأهرام، ٢٠٠٨/٦/٢٨م.
وأعيد نشره في كتاب: «رءوف عباس؛ مؤرخ الشعب والوطن». ٢٠٠٨.

فقدت مصر قبل يومين كاتبًا كبيرًا ومؤرخًا مرموقًا هو **رءوف عباس حامد**.

ولد رءوف عباس عام ١٩٣٩، وتخرج في كلية الآداب بجامعة عين شمس عام ١٩٦١، وحصل على درجة الماجستير عام ١٩٦٦، وكان موضوع أطروحته «تاريخ الطبقة العاملة المصرية» ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٧١، وكان موضوع أطروحته «الملكيات الزراعية الكبيرة في مصر»

وأشرف على الأطروحتين - معًا - أستاذه المؤرخ الكبير **أحمد عزت عبد الكريم**.

عُـين رءوف عبـاس مُعيـدًا بكليـة الآداب بجامعـة القـاهرة. وتـدرج في مناصبها إلى أن صـار أستاذًا في عـام ١٩٨١ ثم رئيسًا لقسم التَّاريخ، فكان أصغر من ولُوا هذا المنصب سنًّا، ونهض بقسمه نهضةً كبيرةً. ودعمه بكفاءات شابة من المدرسين والمعيدين، كما ولى وكالة كلية الآداب لشئون الدِّراسات العُليا ١٩٩٦ - ١٩٩٩ فأعاد تنظيمها على نحو يكفل لها حسن أدائها لمهامها.

كان لسُمعة رءوف عباس العلمية والشخصية أثرها في أن ولى عـدة مناصـب خـارج الجامعـة. فكـان رئيـسًا لوحـدة الدراسـات التاريخيـة بمركـز الأهـرام للدراسـات الـسياسية والاسـتراتيجية. كـما كـان رئيـسًا للجنـة العلميـة بمركـز وثـائق وتـاريخ مصر المعـاصر، ورئيـسًا للجنة الـضم والاستغناء بـدار الوثـائق القوميـة. وانتخـب في عـام ١٩٩٩ رئيـسًا للجمعيـة المـصرية للدراسـات التاريخيـة، فبـدأ برئاسته عهـدًا جديـدًا لهـا، جعلهـا في الـصدارة بـين الجمعيـات العلميـة داخـل وطنـه وخارجه.

صدر لرءوف عباس نحوٌ من عشرين كتابًا باللغتين العربية والإنجليزية في مجال تخصصه، وهو التاريخ الحديث والمعاصر، بينها أطروحتاه لدرجتى الماجستير والدكتوراه ، و«جماعة النهضة القومية»، و«وثائق بريطانية عن الحركة العُمالية في مصر»، و«شخصيات مصرية بعيون أمريكية»، و«اليابان في عصر مايجي»، و«التنوير بين مصر واليابان»، فضلًا عن سيرته الذاتية ذائعة الصيت «**مشيناها خطى**» التي تصدر طبعتها الرابعة بعد أيام .

إلى جانب مؤلفاته صدر له خمسة عشر كتابًا مترجمًا، أو أشرف على ترجمته، منها: «دراسات في تطور الرأسمالية» لموريس دوب، و«يوميات طبيب هيروشيما» لمتشيكو هاشيا ، و«الجذور الإسلامية للرأسمالية» للمؤرخ الأمريكي الكبير بيتر جران ، و«ما بعد المركزية الأوروبية» للمؤرخ نفسه. و«تجار القاهرة في العصر العثماني» لنللي حنا. كما قام على تحرير العديد من الكتب الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية، فضلًا عن عشرات المقالات بالعربية والإنجليزية في دوريات عربية وعالمية. وحاضر في العَديد من الجامعات العربية والأوروبية والأمريكية واليابانية.

الأهم من هذا كله، فقد أسَّس رءوف عباس مدرسةً في التاريخ الاجتماعي، تخرج فيها العديد من تلامذته في مصر والوطن العربي. ووجههم إلى دراسة الوثائق باعتبارها المورد الأهم بين موارد التاريخ، وعُني عنايةً خاصة بالحقبة العثمانية التي لم تكن موضعًا لاهتمام المؤرخين في المرحلة السَّابقة عليه، ومن أجلها أنشأ حلقةً دراسيةً تكمل هذه الأيام السنة السادسة عشرة لها.

في هذا السياق عُرف رءوف عباس باستقامته الخُلقية ودماثته، واعتداده بنفسه، وقوله الحق في أصعب الظروف، ووطنيته الفائقة وعروبته، وشغله بالهم العام. وعدائه للصهيونية والعولمة الأمريكية. ولم يسع طيلة حياته إلى مناصب، إنما سعت إليه هذه المناصب، فأضاف إليها، ولم تضف إليه. هذا إلى ما عُرف عنه من عطاء بلا حدود، لا ينتظر ثوابًا لعطائه، يكفيه نظره الرضا في عيون من أعطاهم.

لهذا وغيره فقد حظى رءوف عباس بتقدير المحافل العلمية في وطنه وخارج وطنه، وحصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٩، كما حصل على العضوية الشرفية لجمعية دراسات الشرق الأوسط، بشمال أمريكا M.E.S.A فكان أول عربى يحصل عليها.

بعد رحلةٍ من الصراع مع المرض رحل رءوف عباس حامد قامةً شامخةً، مات كما كان يتمنى في سيرته الذاتية كالأشجار واقفًا، ملأ الدنيا بعلمه وشغل الناس، وخلَّف برحيله فراغًا، يصعب أن يملأه أحدٌ بعده.

# موتُ هرَقْل
## بُكائية إلى رءوف عباس

جريدة العربي، ٢٠٠٨/٧/٦م.
وأعيد نشره في كتاب: «رءوف عباس؛ مؤرخ الشعب والوطن». ٢٠٠٨.

لـدى وفـاة سـيف الله خالـد؛ اجتمعـت بنـات عمـه يبكينه، ووصل خبرهن إلى عمر، فامتنع عن نهيهن، وقال: «على مثل أبى سليمان تبكي البواكي». أما أنا فأقول: «**على مثل أبي حاتم تبكي البواكي**».

عند الحديث عن رءوف عباس، لا أدري من أين أبدأ، ولا كيـف أبـدأ، وإلى أيـن ينتهـي بي المـسير. ليـصدقني القـارئ القول، حين أترك قلمي على سجيته، يعبر عما يعتمل في نفسي،

ويكمن في جوارحها. هو نسيج وحده بين غيره، أفاء عليه تعالى بخصال غريبة في زماننا، غريبة في مكاننا. كم من مآثر شاهدتها، ومآثر حكاها بعضهم قبل رحيله، ومآثر أخرى حكاها بعضهم الآخر بعد رحيله.

معتدٌ بنفسه يفيضُ كبرياءً، إذا ما مس أحدهم طرفًا منها، عزوف عن الدنيا.. أعراضها ومظاهرها، لا يسعى إليها وإن سعت إليه، يتحفظ منه من لا يعرفه، وهو بعض أهله إذا اقترب منه، صريح إلى أبعد حدود الصراحة، مُستقيم إلى أبعد حدود الاستقامة، أجهد خصومه في تعقب زلَّة واحدة له، ولدينا مثال في سيرته الذاتية.. ما أجملها من سيرة ذاتية.

كان شديد الاقتراب من غيره، برغم من مسحةِ جهامةٍ قد تعلو وجهه، شديد الحساسية تجاه الآخرين ومشاعر الآخرين، كريمًا معطاءً، شواهد كرمه وعطائه أجلّ من أن تحصى، وأكبر من أن تحصى، متواضعًا بسيطًا، يجد نفسه في تواضع العلماء وبساطة العلماء. كان قويًّا كأنه قُدَّ من صخرٍ، صلبًا عنيدًا عند الملمات، نقيًّا كأنه النسيم في أوان الربيع، قارئًا مُتعدد القراءات متنوعها، أديبًا تلمح في سيرته الذاتية ذائقةً حلوةً، كم هي تلك الذائقة حلوة، حكَّاءً من الطراز الأول،

يمتلك منك حين يحكي حواسَّك؛ كُل حواسِّك.

هو الشهامة بعينها، هو الرجولة والبطولة والأخلاق الندية، ينهضُ لنجدة المظلوم دون صرخة منه، يعطيه من صفاء نفسه وروائها ما وسعه، وكذا كانت حاله معي، حين حاولت طيور الظلام أن تنهشني بليلٍ حالكٍ من لياليا الحالكة، فصار يذكرني بفارسٍ من فرسان العصور الخالية، يصنع المعروف ويمضي، ثم يصنع المعروف ويمضي.

لم ينغلق رءوف عباس على تخصصه، ولم يكتف بما استجد فيه، ولا ما أضافه إليه، إنما عاش عصره ومشكلات عصره، فكان منافحًا شرسًا عن أمته، يحامى عنها لا يهدأ في محاماته عنها، منحازًا إلى فقرائها ومحروميها، يتعامل معهم كأنهم بعض من أهله وذويه وصحابه وبنيه.

ومع كونه ناصريًّا، فلم يكن أبدًا من دراويش الناصرية، كما لم يفد على نحو مباشر منها، ولم يتخل في الوقت نفسه عنها، طلبًا لمصلحةٍ آنيةٍ، مثلما فعل غيره ممن يميلون مع الريح أينما تميل تلك الريح، مناهضًا للصهيونية والإمبريالية والعولمة الأمريكية، مناهضًا كذلك للأنظمة الفاسدة المستبدة، وأخصُّها نظامنا الفاسد المستبد.

يسألونني لماذا أنت مُتحمِّس لـ«رءوف عباس»؟ أقول: لأنه قدوة، ونحن نفتقد القدوة ، لأنه إنسان، ونحن نفتقد الإنسان، لأنه العطاء ونحن نفتقد العطاء. قامة شامخة تذكرني بقامات أخرى شامخة، عرفتها وصاحبت أصحابها.. العقاد، حمدان، الهلالى نبيل. بصماته واضحة في كتبه ومقالاته ومترجماته، واضحة كذلك في تلامذته، في الآثار التي خلَّفها في كل منصب شغله، وفى كل مهمةٍ نيطت به. لم ينافق أحدًا.. لم يجامل .. لم يداهن، كان مرفوع الرأس عملاقًا.

كنت شاهد عيان على مشهدٍ أعزُّ من أن يتكرر في هذا الزمان، فعندما كان مرضه في بداياته عرض عليه أمير عربى كريم، هو **الشيخ سلطان القاسمي** – نضَّر الله أيامه وأبقاه – عرض عليه أن يتكفل بعلاجه على نفقته خارج وطنه.. شكره رءوف عباس وأبى. عندما صار مرضه في نهاياته، جلست إلى جواره أعوده، وألححت عليه أن يستجيب لعرض الأمير الكريم، وقلت له. «إنها سوف تكون مبادرةً من أصدقاء رءوف عباس، وليست مبادرةً من رءوف عباس».. لكنه عاود إباءه. أكبرته.. أكبرت إباءه.. كبرت مكانته الكبيرة في نفسي.. سكت، تألمت.. وتأملت. غيره يطرقون أبواب أمراء غير هذا الأمير،

يطرحون أنفسهم أمام عتبات قصورهم، فينفحونهم بعطايا وهبات أو ينفحونهم بحجات إلى بيت الله أو عُمرات، ليغفر لهم تعالى ما تقدم من ذنوبهم – ما أكثرها – وما تأخر.

معذرةً صديقي **إيمان يحيى**: أنت تدعوه بالرجل الجبل، أما أنا فأدعوه بِهِرَقْل.

يحكون في الأساطير أن هرقل هذا كان بطلًا أي نصف إله، أبوه زيوس رب الأرباب وأمه إنسية. وينسبون إليه مجموعةً من الخوارق، فقد قتل الأسد، واتخذ من جلده لباسًا له، كما قتل الأفعى متعددة الرءوس، وقبض على الثور الهائج، وحوَّل مجرى النهر، وفك إسار برومثيوس سارق النار، ونحَّى أطلس عن مكانه، ليحمل الأرض على كاهليه، وأعان قومه في حربهم ضد طروادة، وأعان آلهته في حربها ضد المردة. ولأنه نصف إله، فهو نصف إنسان.. لذا فقد مات، لكن أبناءه وحفدته عادوا بعد زمانٍ إلى بلادهم بلاد اليونان، ليبدأوا زمانًا جديدًا لها.

مثلما عاد أبناء هرقل وحفدته إلى بلادهم بلاد اليونانيين، ليبدأوا زمانًا جديدًا لها، سوف يعود أبناء رءوف عباس وحفدته إلى بلادهم بلاد المصريين.. بلادهم المسلوبة المنهوبة المغتصبة، ليبدأوا زمانًا جديدًا لها.

كم من معارك خاضها ذلكم المحارب الأخير والكبير، وكم من معارك ربحها؛ أولاها معركته ضد نشأته الفقيرة في أسرة فقيرة، لا تملك في معركة الحياة سوى شرفها، فحافظ لها على شرفها وانتصر، ثم خاض معارك أخرى كبيرة وانتصر.. أما معركته - بل معاركه - ضد الفساد في جامعته وضد الفساد في الوطن الذي تنتمي إليه جامعته، فكانت أكبر منه، يكفيه شرف الشجاعة، ويكفيه شرف المحاولة.

هناك من أعانه في خوضه معاركه.. في طليعتهم سيدة فاضلة، من خيرة سيدات العالمين، سيدة اسمها **سعاد**، كانت بالنسبة له كل شيءٍ في حياته، وكان بالنسبة لها كل شيءٍ في حياتها. في إحدى زوراتي له، وكان بين الصحوة والغياب، سألني عنها.. كذبت وقلت: «إنها سوف تأتي» (حقيقةً كانت تأتي كل يوم) وما كادت تمضي دقائق حتى أتَت، فعلت وجهه ابتسامة، وسعدت أنا بتلك الابتسامة.

انتصر رءوف عباس في كل معركة خاضها، لكنه خسر معركته ضد المرض اللعين.. ما أتعس هذا المرض اللعين.. ما أشقاه.

مات رءوف عباس ... عند قبره وبعد أن وسدناه

التراب، تذكرت العقاد حين وقف عند قبر مَيٍّ وقال:

شِـــيمٌ حُـــرٌ رضـــيَّاتٍ عِـــذابْ وحجىً ينطق بالرأى الصَّوابْ
وبيـــانٌ ألمعـــيٌّ كالـــشِّهاب وجمـــالٌ قُدُســـيٌّ لا يُعـــاب
كُـــلُّ هـــذا في الـــتُّراب آه مـــن هـــذا الـــتُّراب

ليتني كنت شاعرًا لأنظم في رءوف عباس قصائد، تُزري بالأصمعيات والمفضليات وكل ما أتى وما هو آت.

أنا إذن حزين لموت رءوف عباس.. لا أتصور كيف تمضي الحياة بنا، وقد مضى رءوف عباس ... يتسلل إلى من سجف الأبدية صوت أبى ذؤيب يقول:

أمِـــن المنُـــون ورَيْبهـــا تتوجـــعُ والدَّهرُ ليس بمعتبٍ من يجزعُ
أودى بنيِّـــىَ وأعقبُـــوني غُـــصةً بعـــد الرقـــاد وعَـــبرةً لا تقلـــعُ
ولقـد حرصـتُ بـأن أدافـعَ عـنهمُ فـإذا المنيَّـــةُ أقبلـــت لا تُـــدفعُ
وإذا المنيَّـــةُ أنْـــشَبت أظفارَهـــا ألفَيْـــتَ كُـــلَّ تميمـــةٍ لا تَنفـــعُ

صـدق والله أبـو ذؤيـب.. لكنـه الفـراق، مـا أمـرَّ الفراق!!.. كيف تكون الحياة حياةً دون رءوف عباس، كيف يكون طعمها، بل كيف نألفها بما فيها من فسادٍ نعافه ونظامٍ لا نطيقه، وهمومٍ تمضي وهمومٍ تجيء.

كان رءوف عباس بالنسبة لنا كهفًا نأوي إليه، حين

تدهمنا حادثة من حادثات الزمان ودواهيه، نتلمَّس من قوته قوةً، ومن عزمه عزمًا، ومن إرادته إرادة. كان نهرًا من العطاء.. نهرًا من العلم.. نهرًا من الوطنية، كان نهرًا في كل شيءٍ جميلٍ جميل.

تعلمنا منه نحن أصدقاءه وصحابته ومجايليه.. تعلمنا منه الكثيرَ والكثيرَ، لكن أهم ما تعلمناه منه.. الصمُود أمام الأعاصير، وأن الزَّبَد يذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض. إذن علينا أن نمضي مع أبي ذؤيب وهو يخاطب نفسه:

وتجلَّدي للشَّامتين أُريهِمُ أنِّي لريبِ الدَّهر لا أتضَعْضعُ

ولكن.. فكما كان لـ«**يسوع**»تلامذة خانه أحدهم بعد أن غسل أقدامهم وتناول معهم عشاءه الأخير، كان لرءوف عباس تلامذة خانوه.. أكثر من أحدهم خانوه. قال لي ذات يوم: «إنه يحتسب عند الله ما أسداه لهم من خير» أما هم فقد تحولوا عنده إلى موتى.

والنَّاس صِنفَان موتى في حياتهم وآخرُون ببطنِ الأرض أحياءُ

صدق والله الشاعر، وصدق رءوف عباس، وكما مضى يسوع إلى أعلى عليين، ومضى خونة يسوع إلى أسفل سافلين، مضى رءوف عباس إلى أعلى عليين، ويمضي خونة رءوف

عباس إلى أسفل سافلين.

أخاطبه وقد صار « **في مِقْعدِ صِدقٍ عند مَليكٍ مُقتدر**»، وأعزيه بأن الكثرة ممن أحسن إليهم، يتذكرون إحسانه، ولا ينسون أياديه، ويدعونه تعالى بأن يمنحه دُنيا خيرًا من دنياه ويمنحهم هم صبرًا وسُلوانًا.

رءوف عباس.. أيها الإنسان الجميل والفارس النبيل.. يا أجمل من عرفت، وأنبل من عرفت. يا صديقي الأعز، وأخي الذي لم تلده أمي.. وداعًا. ليغفر لي نزار، حين أقتبس من رائعته الناصرية، وأبدل كلمةً واحدةً فيها وأقول:

أُنَادي عليك أبا حاتمٍ وأعرفُ أنِّي أُنادي بواد
وأعرفُ أنك لن تستجيب وأن الخوارق ليست تعاد

رءوف عباس حامد ... وداعًا.

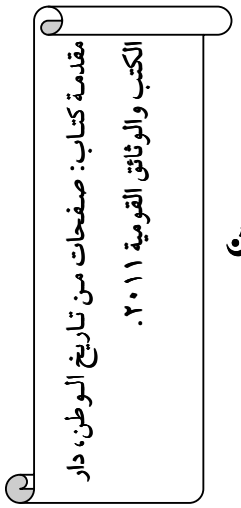

# صفحات من تاريخ الوطن

مقدمة كتاب: صفحات من تاريخ الوطن، دار الكتب والوثائق القومية ٢٠١١.

**عن الكاتب**

قبل ثلاث سَنوات غادر رءوف عبَّاس حامِد عالمنا هذا إلى عالم آخر، سوف نُغادر إليه طال العُمرُ أم قصر.

مضت ثلاث سنوات، لكنَّنا - نحنُ أصدقاءه وصحَابته ومُريديه - نحسبه مُقيمًا بيننا ولا نحسبه غاب عنَّا.

أقول ذلك، لأنَّني - وأنا واحد من مُحبِّيه الكُثْر - أحاول أن أنسَى، أو ربَّما أتناسى أنه مات.

كيف أُصدِّق أنه مات، وهو الذي كان بحضُوره

الطَّاغي يجعلنا نصمت عن الكلام إذ يتكلَّم ... نُصيخُ السَّمع حتى لا تَفلِت منَّا كلمةٌ واحدةٌ قالها.

افتقدتُ بموت رءوف عبَّاس صديقًا حميمًا، وأخًا صميمًا، كنتُ أتمنَّى أن يظلَّ رفيق الرِّحلة، إلى أن أرحل أنا، قبل أن يرحل هو.

قد كُنت أُوثر أن تقُول رثَائي يا مُنصف المَوْتَى من الأحيَاءِ

في هذا الزَّمان، حيث نفتقدُ الصِّدق والصَّراحة والوضُوح، يظلُّ رءوف عبَّاس مثالًا للصِّدق والصَّراحة والوضُوح.

كنت آنسُ إليه، عندما أتحدَّث معه في موضُوع أهمَّني، فأرتاحُ إلى ما يقُول، حتَّى وإن قال ما لم أكن أتوقَّعه، لسببٍ بسيط هو أنَّني كُنت أُصدِّقه، دائمًا كنت أُصدِّقه.

كتبت عنه ذات يوم، أحاول أن أتلمَّس الصِّفة المفتاح في شخصيَّته، فقلت إنَّها «**النَّفسُ الكَبيرة**» وما أزال مُصرًّا على هذه الصِّفة المفتاح، لكن هناك صِفة أُخرى مِفتاحًا، ربما نازعت هذه الصِّفة، وربَّما فاقتها؛ هي الصِّدق، والصِّدقُ من شِيم الكبَار، وكان رءوف عبَّاس كبيرًا.

يا أيها النَّاس أبدُوا ذات أنفُسِكُم لا يستوي الصِّدقُ عند الله والكَذبُ

كـم أفتقدُك أيها الـصَّديق العزيـز، وأنـا أغذُّ الخُطى إلى نهاية أحسبُها قريبة.

كـم أفتقدُك، وكنت أتمنَّى أن تكُون بيننا، وقد تحقَّقت أُمنيـة، كُنـت أتطلـع إليهـا، وكنـت أنـت تتطلَّـع إليهـا، منـذ أن انتميت أنا وانتميت أنت إلى **جماعة ٩ مَارس**، وإلى **جماعة كفَاية**.

يوم الحادي عشر من فبراير ٢٠١١ يومٌ مشهُود ... يومٌ أغرُّ على جبين الدَّهر، ففي مسائه تمَّت إزاحة الطَّاغُوت ... كُنَّا نـرقُص ونغنِّي ... حقيقةً كُنَّا نـرقُص ونغنِّي، ثـم نهتف: «**ارفع راسك فوق إنت مصرى**».

كم كان هتافًا جميلًا أعاد إلينا ذكريات أيام خَلت وليالٍ خلت.

كانت ليلةً رائعةً، بل أكثر من رائعة ... استمرت حتى الصَّباح، حشد كبير من المصريين من خُلاصة المصريين، يقدَّر بـالملايين في ميـدان التَّحْريـر وحولـه، وفي سـائر ميـادين القـاهرة وحولها، وفي ميادين مِصر كلها.

سـجدنا لله تعَـالى ... شـكرناه عـلى نعمائِـه وكرمـه وسَـخائه ... صـلَّينا، أخـيرًا أتانـا فـرجُ الله ... كنـت أُقبِّـلُ مـن أعرف ومن لا أعرف، أُلقي بنفسي في أحضَانه، ويُلقي بنفسه في أحضَاني.

تعبت من الوقُوف، أنا الذي وهن العَظْم منِّي ... جلست – وقد أذهَلتني المفاجَأة – أتفكَّر، من كان يُصدِّق أن تزول حِقبة سوداء كئيبة من تاريخ الوَطن، استغرقت ثلاثين سنةً (بل أربعين إذا نحن أدخلنَا فيها حقبة السَّادات) في ثمانية عشر يومًا فقط.

تذكَّرتُك وأنا أُلاحق نبض مِصر وقد تعالت دقَّاته، وأُلاحقُ قلب مصر وقد تدفَّقَت الدِّماء في شرايينه، وتذكَّرتُ معك رجالًا شُرفاءً فُضَلاءً عُلماءً نُبهَاءً، شَاركُوا – وعلى مدى سنوات – في الإعداد لهذا الحَدث وفي صُنعه، رجالًا من طِراز: **أحمد نبيل الهِلالي** و**عبد الوهَاب المسِيري** و**محمَّد السيِّد سَعيد**، وغيرهم وغيرهم.

كم كنتُ أتمنَّى أن تكُون معنا، وأن تكونُوا جميعكم معنَا، ونحن نرقُص ونغنِّي ثم نهتفُ: «ارفع راسك فوق إنت مصري».

لكنَّه القدر.

ما أمرَّ هذا القدر!!.

ما كُنت تتطلع إليه يا رءوف وتتمنَّاه حدث، وها هي مصر ... مِصرُك ومِصرُنا عادت إليها رُوحها، وغابت عنها

طُغمةٌ فاسِدة مُفْسِدة مُستبدَّة جرَّفَت حاضِرها، وكادَت تُجرِّف مُستقبَلها.

**وعن الكتاب**

وهذا الكتاب ضميمةٌ من مقَالات، دبَّجَها قلم رءوف عبَّاس، تمتدُّ ستة عشر عامًا (١٩٩٢-٢٠٠٨) جميعها في الشَّأن العام، وإن اصطبغت بصبغةٍ أكاديميَّة واضحة، وهي على ضَخامة هذا الكتاب وفخَامته، ليست كُل ما كتب، إنَّما هي بعض ما كتب، انتخبنَاها وحدها دُون غيرها، وجميعًا تشي بكون صاحبها مثقَّفًا شاملًا مُلتزمًا بتعبير **سَارتر**، أو مثَقَّفًا عُضويًّا بتعبير **جرامشي**، مهمُومًا بعصره وقضَايا عصره، لا يقف منها موقف المُتفرِّج، أو موقف الرَّاصِد، إنما هو يقف موقف النَّاقد، أو موقف المُشارك، أو هُما معًا.

إلى جانب هذه المقالات في الشَّأن العام، هناك مقالات أخرى في صميم التخصُّص، وهو التَّاريخ والتاريخ الحديث والمُعاصر، نشرها رءوف عباس في مجلَّات ودوريَّات علميَّة مُحترمة في وطنه وخارج وطنه، نهض على نشر بعضها وَلدُنا – وولدُ رءوف عبَّاس – أعني المؤرِّخ الشَّاب **ناصر أحمد إبراهيم**، وضمَّنها في كتاب مُفرد صدر قبل عامين، ودارت حوله حلقة

نقاشيَّة عُقدت بالمجلس الأعلى للثَّقافة لدى الاحتفال بالذِّكرى الأُولى لرحيل مُؤرِّخنا، وهناك مقالات أُخرى غيرها سوف تجد طريقها إلى النَّشر في قابلٍ من الزِّمن، ليس ببعيد.

تنتظمُ كتابنا هذا مجمُوعة محاور، يربط بينها جميعها كون صاحبها مؤرِّخًا كبيرًا، يتتبع أحدث ما كانت تُصدره المطابع في مجال التَّاريخ، وفي مجالات أُخرى غير التَّاريخ، كيف لا وهو المثقَّف الشَّامل الذي كان دائم التردُّد في سفريَّاته التي تتعدَّد في العام الواحد على خزائن الكُتب ودور المحفُوظات والمكتبات، يرصدُ ما استجدَّ على ساحة المعرفة، يقتني بعضًا مما تحتويه، ويُصوِّر البعض الآخر، لا يُقيم في سبيل ذلك وزنًا لمال أنفقه أو جهدٍ بذله ... ومن هنا نستطيع أن نفسِّر تعدُّد اهتمامات مُؤرِّخنا واتِّسَاع مدى رُؤيته، وكيف أنه كان فيما يكتب ... في كُلِّ ما يكتب، لا يعيدُ إنتاج ما سبق وكتب، إنَّما يأتي بجديدٍ في كل ما كتب.

يحتفلُ رءوف عبَّاس في كتابنا هذا بالوثائق، باعتبارها المَورد الأهم من مَوارد الكتابة التَّاريخية، ينبغي الحفاظ عليها، وتسجيلها وصِيانتها وإتاحتها للبَاحثين بكُلِّ السُّبل، وعدم التذرُّع دائمًا بداعية الأمن، ويأتي لنا بنماذج توضِّح عناية الغَرب بها.

يحتفلُ رءوف عبَّاس كذلك بمنهجيَّات الكتابة التَّاريخية، فيُلفت أنظارَنا إلى ما يعرف بالتَّاريخ «الاسْتِطلاعي» أو «الاسْتِشرافي» الذي يُنوِّه إليه المؤرخ الإنجليزي المُعاصر **إريك هُوبسباوم**، وهو نمطٌ من التَّأريخ يفيدُ بمعطيات العلُوم الاجتماعيَّة، سيما إذا كان ثمَّ نُدرة في الوثائق، ويأتي بمثالٍ تطبيقي لهذا المنهج من خلال كتابات المُؤرِّخ الإنجليزي المعاصر – أيضًا – **بُول كينيدي**، والذي يتنبَّأ فيه بزوال الإمبراطُوريَّة الأمريكيَّة خلال عقُود يسيرة – من قَرننا الذي نعيشُه – وصعُود آسيا.

وإذا كُنَّا في مرحلةٍ سابقة نضرب صفحًا عن العَصر العُثماني، أو نجعله – وقد امتدَّ عندنا نحوًا من ثلاثة قرُون – مقدِّمةً لتاريخنا الحديث، فإنَّ مُؤرِّخنا يُعطي هذا العصر قدرًا فائقًا من اهتمامه، ويأتي بطرفٍ منه، خصُوصًا فيما يتَّصِل بدعاوى الإصلاح، والأهمُّ أنه يُنوِّه إلى ما ساد هذا العصر من تسَامُح كان نسيج وحده، يحتوي مِللًا ونِحلًا وأعراقًا وثقافات، كانت جميعها مُتباينةً، وكان لليهُود فيه مكانة لا تعدلها – بخلاف ما هو شَائع – مكانتهم في أقطار أورُوبيَّة مُعاصِرة لتلك الدَّولة العُثمانية.

المُـؤرِّخ – بعـد ذلـك – يتـصدَّى لمحـاولات بعـض المُستشرقين، ومن لفَّ لفَّهم من الصَّهاينة – مسيحيين ويهُودًا – لتفكيـك تاريخنـا وتزويـر حقَائقـه لـصالح الامبرياليَّـة العالميـة، ومحـاولاتهم حجـب أيَّـة مزيَّـة للثقافـة العَربيـة الإسـلاميَّة، واعتبارها نبتًا طُفَيليًّا على هامش الثَّقافة المسيحيَّة – اليهُوديَّة، وممَّا يجدر ذكره أن لرءوف عبَّاس كتابات مُهمَّةً في الرَّد على أطرُوحات المُستشرق الإنجليزي الصُّهيوني **برنـارد لـويس**، الذي يعد عرَّابًا للمُحافظين الجُدد في الإدارة الأمريكيَّة، وكم ألححتُ على رءوف أن يختصَّ هذا المُستشرق بكتابٍ مُفرد، على نحو ما فعل **إدوارد سَعيد** في زمان سَابق، ووقع في ظنِّي أنه كان بسبيله إلى ذلك، لكن القَدر لم يُسعفه.

لا يقفُ المُؤرِّخ عند هذا الحد، إنما يتصدَّى للولايات المُتَّحدة، ومسَاعيها الدَّءوب من أجل السَّيطرة على وطننا العَربي، من خلال الأحْلاف العسكرية، أو الضُّغوط السِّياسية والاقتصاديَّة، أو دعم دولة العدو الصُّهيوني، أو التدخُّل المباشر في شئونه وغزوه، مثلما كانت الحال بالنسبة للعِراق. كما يتصدَّى كذلك للعولمة، ويبيِّن لنا كيف كانت في حقيقتها صناعةً أمريكيَّةً، الهدف منها جعل العالم كله سُوقًا مفتُوحةً للولايات

المتحدة، تُفتِّت من خلالها الأوطان، وتُشتِّت الهويَّات وتخترق الثَّقافات، وتجعل النَّمط الأمريكي للحياة هو النَّمط السَّائد والوحيد.

وإذا كان رءوف عبَّاس ناصِريًّا، يعتز بناصِريَّته ويُؤكِّد عليها، فإنَّ ناصِريته تلك وإيمانه بها لم تمنعه من التَّنْويه إلى ما كان يفتقرُ إليه عبد النَّاصر من ديمُوقراطيَّة، صحيح أنه كان صاحب مشرُوع نهضويّ، كما كان مُنحازًا إلى الفُقراء، لكنه لم يسمح لهُم – ولا لغيرهم – بأن يشاركُوه في صُنع القرار، فقد كان هذا القرار شأنه وَحْده دون غيره، الأمر الذي أفضَى بهؤلاء إلى السَّلبية، ومن ثم كان من اليسير الإِطاحة بتُراث عبد الناصر بعد ذهاب عبد النَّاصر.

على أنَّ ناصِرية رءوف عبَّاس لم تمنعه من إنصافه لبعضٍ من أُسرة **محمَّد علي**، ويأتي في مقدِّمتهم رأس هذه الأسرة الذي يعدُّه باني مصر الحديثة، وصاحب الفضل الأول في نهضتها وقيام إمبراطُوريتها، كما يُعلي من قدر ولده **إبراهيم باشا** الذي كان إلى كَونه فاتحًا كبيرًا، مُنحازًا إلى «أبناء العَرب» أي الفلَّاحين، أمَّا عن **إسماعيل باشا** – وبرغم من سَوءات تتخلَّل عهده – إلَّا أنَّ هذا العهد شهد عُمرانًا حضريًّا امتدَّ إلى زماننا،

كما شهد صعُودًا للطَّبقة الوُسطى، لا يُضاهيه سوى صعُودها في عهد عبد النَّاصر.

ننتقلُ بعد ذلك إلى مجمُوعة من الأساطير الحاكِمة لدى بعض المثقَّفين المصريين والتي يفسِّرُون من خلالها بعض مراحل تاريخنا؛ وفي مُقدِّمة تلك الأساطير أسطُورة اللِّيبراليَّة، فيتَّضح من تحليلِ مُؤرِّخنا أن مصر لم تعرف اللِّيبراليَّة خلال الفترة السَّابِقة لثورة يوليُو، فقد كانت ليبراليَّةً مُشوَّهة، ويعود السَّبب في ذلك التشوه إلى ما جرى من تعثُّر في تجربة التحوُّل إلى الرَّأسماليَّة.

لدينا أسطُورة أُخرى يعود الفضل في الكشف عنها إلى رءوف عبَّاس - وبعضٍ من مُجايليه أبرزهم **عاصِم الدُّسُوقي** - وهي أسطُورة **هنري كورييل** «المليُونير اليهُودي الشُّيوعي» الذي يُعدُّ عند جيل كامل من الشُّيوعيِّين المصريين «قُطْب الحركة الشُّيوعيَّة» في أربعينيَّات القرن الماضي، فيكشفُ مُؤرِّخنا – ومن خِلال الوثائق – حقيقة كونه صهيُونيًّا، ولا يعني ذلك أن غيره من الشُّيوعيين اليهُود (أمثال: **مارسيل شيريزي**) كانوا صَهاينةً وقد اتَّسَمت حوارات رءوف عبَّاس مع رفاق كُورييل ومنهم **يُوسُف حزَّان** (ومن يعرفُون بمجمُوعة رُوما) بالعقلانيَّة والموضُوعيَّة والرُّقى.

على أنَّ أهم الأساطير التي يكشفُ رءوف عباس اللِّثام عنها؛ هي الأسطُورة التي تقول بأن الشَّعب المصري عَصيٌّ عن الثَّورة، فهو في حقيقة أمره يصبر على المُستبد الطاغية إلى أن يطفح به الكَيْل فيثُور، وتكونُ ثورةً عارِمة تعصفُ بالأخضر واليَابس، ويأتي لنا بنماذج لبعضٍ من تلك الثَّورات، التي يصعد ببعضها إلى زمن أجْدَادنا الفراعنة، ثم هو يتنبَّأ بما جرى بالفعل من ثورة مِصرية كُبرى (**ثورة الخامس والعشرين من يناير**) وذلك في مُقابلة صحافيَّة في السَّابع عشر من مايو ٢٠٠٦، وفي مقابلة تليفزيونية مع الرَّائع **مجدي مهنَّا** في الخامس والثاني عشر من أغسطُس ٢٠٠٧، وأكَّد أنها سوف تكون إعصارًا ربَّما يفُوق في مداه إعصَار **تسُونامي**.

في هذا السياق يتناول رءوف عبَّاس بالتَّحليل وبكل شجاعة ما جرى خلال السَّنوات الأخيرة من حُكم الطَّاغية المخلُوع من فساد لم تشهد مصر مثيلًا له عبر عصُورها كافَّةً، ويعقد مقارنةً بين «**خراب مصر**» كما عبَّر عنه مُناضِل رُوسي وفد إلى بلادنا في مطالع القرن الماضي وبين «خراب مصر» الواقع في مطَالع هذا القرن، وبيَّن كيف أنَّ الخَراب الأخير كان أكثر فداحَةً من سَابقه.

المحور الأخير من الكِتاب هو ملف «**يُوئيل بينين**» وهو في الوقت نفسه المعركة الأخيرة التي خاضَها رءوف عبَّاس، تلك المعركة التي امتدَّت من مايُو ٢٠٠٧ إلى يناير ٢٠٠٨، حين بدأ رءوف معركته مع المرض الشِّرير.

ويُوئيل بينين هذا يهُودي أمريكي، كان أستاذًا في جامعة ستانفُورد، ثم صار مُديرًا لمركز دراسَات الشَّرق الأوسط بالجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة، واشتهر بين بعض المثقَّفين المصريين باتجاهاته اليسَارية المُناهضة للسِّياسات الأمريكيَّة والإِسرائيليَّة تجاه القضَايا العربيَّة والقضية الفَلسطينيَّة، وصدر له قبل سَنوات كتاب بعنوان «**شتات اليهود المصريِّين**» ونظرًا لأهميَّة هذا الكتاب ظهرَ اتِّجاه لترجمته إلى اللُّغة العَربية، وترتَّب على ذلك معركة كان رءوف عباس طرفًا رئيسًا (أو الطَّرف الرَّئيس) فيها، واتَّسَع نطاق هذه المعركة لتتَّخِذ أبعادًا، وصلت إلى اتِّهام مُؤزِّخنا **بمُعاداة السَّامية**، وهي تُهمةٌ كان جديرًا بها أن تدفع به إلى **المحكمَة الجنائيَّة الدَّوليَّة**.

أتينا في هذا الكتاب بملف هذه المعركة، ننشُره بكل أمانَة، مُتضمِّنًا كتابات من وقفُوا إلى جانب رءوف عبَّاس، ومن وقفُوا إلى جانب يُوئيل بينين، وتركنَا القَارئ يتَّخذ الموقف الذي يُريد.

❁ ❁ ❁

قبل أنْ ننتهي من هذا التَّقديم لكتابٍ يتَّصل بتاريخ الوطن، نُنوِّه إلى أنَّ مُؤرِّخنا – وكما سبق وأوضح في سِيرته الذَّاتية – كان بسبيله لأن يُؤلِّف كتابًا شامِلًا في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، يُسجِّل فيه فهمه لطبيعة المُجتمع المصري وتطوُّره من خلال المفاهيم الحديثة في الكتابة التاريخيَّة، وحيث إن مادته كانت في مُعظمها حاضِرةً لديه، فإنه كان يتحيَّن الفُرصة، لأن يتفرَّغ لهذا الكتاب، بعد أن يتخلَّى عن مهامه في إدارة الجمعيَّة المصرية للدِّراسات التَّاريخية، لكن الزَّمان «**الوغد**» – كما نعلَم – لم يُسعفه.

يبقى في النِّهاية أن نُحدِّد عملنا في هذا الكتاب، ويتلخَّص في أنَّنا قُمنا بتصويب بعض الأخطاء الطِّباعية واللُّغوية، وحذفنا بعض عبارات تجاوَزتها الأحداث، أو ليست بذات أهميَّة، ولا يخلُّ حذفها بالسِّياق، وصنَّفنا المقالات في ثمانية محاور، راعينَا فيها التَّرتيب الموضُوعي والتَّرتيب الزَّمَاني في آنٍ.

❁ ❁ ❁

يبقى كذلك أن نُنوِّه إلى كتيبةٍ من الأصدقَاء الأعزَّاء الذين كانُوا خير عونٍ لنا في إنجازنا لهذا الكتاب، يأتي في طليعتهم الابن العزيز المُهندس/**حاتم رءوف عبَّاس** الذي نهض على تجميع تُراث أبيه، وفي جُملته مقالات هذا الكتاب، وأنشَأ لهذا التُّراث موقعًا على الشَّبكة العنكبُوتيَّة، وهو بذلك جمع بين برِّ الابن بأبيه وبين مهَاراته الثَّرَّة في علُوم الحاسوب. ويأتي معه كذلك الابن العَزيز - والمُؤرِّخ الواعِد - **أحمد عبد المنعم العدوي** الذي نهض على تَنْسِيق هذا الكتاب وإخراجه ثم إِعْداده للطِّباعة، لا يبتغي في ذلك أجْرًا ولا شكُورًا.

نشكُر هذين الابنين ونشكُر في الوقت ذاتِه صَديقين عزيزين لنَا ولرءوف عبَّاس هُما: **عبد العَال البَاقُوري** و**إيمان يحيَى**، فلولا دعمَهُما للمُحرِّر وحفزهما إيَّاه وتشجِيعهما ما كان لهذا الكتَاب أن يرى النُّور.

في الأخير يكُون الشُّكر للصَّديق العزيز والمُؤرِّخ الفاضِل **محمَّد صَابر عَرب** رئيس الهيئة العامَّة لدَار الكُتب والوثائق القَومية حقًّا واجب الأدَاء، جزاه اللهُ عنَّا خير الجَزاء.

**والحمد لله**